مجلة الموروث مجلد: 07 عدد: 01 السنة 2026
ص: 120 - 139 ISSN:2710– 8503 EISSN:2992–1538

طبيعة الشكل القصصيّ في مُؤَلَّفِ <<جان رونيه بوتيي>>
عن "القصص الخارقة التارقيّة Légendes Touareg"[1]

The nature of the narrative form in Jean-René Boutier's work on “Légendes Touareg” (Tuareg Legends)

* أ.د. عبد الحميد بورايو
Abdelhamid Bouraoui
جامعة مرسلي عبد الله تيبازة (الجزائر)
University Center Mersli Abdallah Tipaza Algeria
bourayou1950@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2026/02/08	تاريخ القبول: 2026/04/25	تاريخ النشر: 2026/05/30

مُلخّص البحث

تمّ نشر كتاب "جان رونيه بوتيي Jeanne René Pottier" في سنة 1946 في باريس، من قِبَلِ زوجة "رونيه بواتييه"؛ وهو باحث إثنولوجي كان من بين المستكشفين لمنطقة الصحراء الإفريقيّة الكبرى. كانت هذه المرأة تساعد زوجها في أعماله الإثنولوجيّة المختلفة، وخاصّة منها ما يتعلّق بالأوساط النسويّة في منطقة التوارق، فتجمع له النصوص، وقد أقامت برحلة عبرت فيها الصحراء الجزائريّة مرورا بورقلة وآمقيد حتى جانيت التي مكثت فيهاحوالي ستة أشهر، جمعت خلالها قصصا بطوليّة خارقة، ضمّنتها هذا المؤلَّف. اتّخذ الكتاب شكل مذكرات سجّلتها في رحلتها إلى بلاد التوارق، حيث سردت وقائع تنقّلاتها، ولقائها بالرواة، ونقلت عن هؤلاء الأخيرين رواياتهم، مسجّلة السياقات المختلفة التي التقت فيها بهم، وما دار بينها وبينهم من حوارات، مع تحديد الظروف المكانيّة والزمانيّة، ووصف وقائع المحادثة التي جرت معهم.

الكلمات المفتاحية: توارق، قصص خارقة، حكاية شعبية، كائنات ماورائية، جن، إثنولوجي.

* عبد الحميد بورايو bourayou1950@gmail.com

Abstract :

The book Jeanne René Pottier was published in Paris in 1946 by the wife of René Pottier, an ethnologist who was among the explorers of the Great African Sahara. This woman assisted her husband in his various ethnological works, particularly those related to women's circles in the Tuareg region. She collected texts for him She undertook a journey across the Algerian Sahara, passing through Ouargla and Amgid to Janet, where she stayed for about six months, collecting heroic and extraordinary stories, which she included in this book. The book takes the form of a diary she kept during her journey to the Tuareg lands, in which she recounts her travels, her encounters with storytellers, and their stories, recording the different contexts in which she met them and the conversations she had with them, specifying the place and time and describing the events of the conversations that took place with them.

Keywords: Tuareg, supernatural stories, folk tales, supernatural beings, jinn, ethnology.

مقدمة:

تُعَدُّ النصوص الحكائيّة التي دوّنها المستكشفون والإثنوغرافيّون الأوروبيّون حول الصحراء الكبرى من أهمّ المدوّنات التي أسهمت في نقل جوانب من الثقافة الشفهيّة التارقيّة إلى حيّز الكتابة، لما تحمله من صورٍ عن أنماط العيش، وتمثّلات الإنسان الصحراوي للعالم، وعلاقته بالمقدّس والعجيب والبطولة. غير أنّ هذه النصوص لا تكتسب قيمتها من مادّتها الإثنوغرافيّة وحدها، بل من طبيعة بنائها السردي أيضًا؛ إذ تتحوّل فيها الرحلة إلى فعل حكي، ويتداخل الوصف التوثيقي مع التخييل القصصي، فتنبثق نصوص تقع في منطقة وسطى بين المذكّرات، وأدب الرحلات، والحكاية الشعبيّة.

وفي هذا السياق يندرج مؤلَّف «*القصص الخارقة التارقيّة*» لـ"جان رونيه بوتيي"، الذي نُشر سنة 1946 بباريس، باعتباره وثيقة سرديّة تكشف عن جانب من المتخيّل التارقي كما تلقّته ودوّنته عينٌ

أوروبيّة انخرطت في الفضاء الصحراوي، وعاشت تفاصيله اليوميّة، وخاصّة في منطقة جانت وما جاورها. فقد اتّخذ الكتاب شكل يوميّات رحليّة تسجّل مسار التنقّل عبر الصحراء الجزائريّة، وتصف اللقاءات بالرواة، وتنقل الحكايات الخارقة التي ظلّت متداولة في الذاكرة الشفهيّة المحليّة، مع الحرص على تثبيت ظروف الرواية وسياقات التلقّي وملامح الرواة أنفسهم.

وتنبع أهميّة هذا المؤلَّف من كونه لا يقدّم الحكاية الشعبيّة في صورتها المجرّدة، وإنّما يعيد بناءها داخل نسيج سرديّ تتداخل فيه أصوات الرواة مع صوت الكاتبة، وتتشابك فيه وقائع الرحلة مع العالم الأسطوري الذي تحمله القصص. ومن ثمّ فإنّ دراسة طبيعة الشكل القصصي في هذا العمل تتيح الكشف عن الكيفيّة التي انتقلت بها الحكاية التارقيّة من فضائها الشفهي إلى صياغتها المكتوبة، كما تسمح بفهم الخصائص البنائيّة التي حكمت هذا الانتقال، وما نتج عنه من تفاعل بين الخطاب الإثنوغرافي والكتابة السرديّة.

وانطلاقًا من ذلك، تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة طبيعة الشكل القصصي في *«القصص الخارقة التارقيّة»*، من خلال الوقوف عند آليات السرد فيه، وأنماط بناء الحكاية، ووظائف الوصف والحوار، وعلاقة الراوي بالسياق الرحلي، مع محاولة إبراز أثر البيئة الصحراويّة في تشكيل المتخيّل الحكائي التارقي، والكشف عن حضور العجيب والبطولي بوصفهما عنصرين مركزيّين في بناء هذا العالم السردي.

1-كتاب "جان رونيه بوتيي Jeanne René Pottier"

تمّ نشر كتاب "جان رونيه بوتيي Jeanne René Pottier" في سنة 1946 في باريس، من قِبَلِ زوجة "رونيه بواتييه"؛ وهو باحث إثنولوجي كان من بين المستكشفين لمنطقة الصحراء الإفريقيّة الكبرى. كانت هذه المرأة تساعد زوجها في أعماله الإثنولوجيّة المختلفة، وخاصّة منها ما يتعلّق بالأوساط النسويّة في منطقة التوارق، فتجمع له النصوص، وقد أقامت برحلة عبرت فيها الصحراء الجزائريّة مرورا بورقلة وآمقيد حتى جانيت التي مكثت فيها حوالي ستة أشهر، جمعت خلالها قصصا بطوليّة خارقة، ضمّنتها هذا المؤلَّف. اتّخذ الكتاب شكل مذكرات سجّلتها في رحلتها إلى بلاد التوارق، حيث سردت وقائع تنقّلاتها، ولقائها بالرواة، ونقلت عن هؤلاء الأخيرين رواياتهم، مسجّلة السياقات المختلفة التي التقت

فيها بهم، وما دار بينها وبينهم من حوارات، مع تحديد الظروف المكانيّة والزمانيّة، ووصف وقائع المحادثة التي جرت معهم.

2-جنس الحكايات "Légendes"

تنتمي الحكايات التي أوردتها المؤلّفة وسمّتها "Légendes" إلى جنس القصّة البطوليّة الخارقة، ونقصد بهذا الجنس ما سمّته نبيلة إبراهيم بـ"أساطير الأخيار والأشرار". حيث <<نجد الإنسان الخيّر في أسطورة الأخيار إنسانا واقعيّا، وهو يتميّز عن غيره من الناس بأعماله التي تتّسم بالفضيلة والبطولة في آن واحد. ومن شأن الأسطورة في هذه الحالة أن تجسّد فيه الخير بحيث يصبح نموذجا يُحتذى به.>>[2]. يمكن القول بأن هذا اللون القصصي يندرج فيما سمّيتُه في كتابي عن الأدب الشعبي الجزائريّ في نوع الحكاية الشعبيّة بمعناها الخاصّ. أورد هنا تعريفا يَبِينُ عن بعض الخصائص التي تتميّز به القصّة البطوليّة الخارقة: <<.. تتّخذ مادّتها من الواقع النفسيّ والاجتماعيّ الذي يعيشه أفراد الجماعة التي تتداولها وتعيد إنتاجها. هي من الأنماط الأكثر تداولا، والأكثر تنوّعا نظرا لمرونة شكلها، أو بالأحرى لعدم استقراره، فهي لا تلتزم بحدود شكليّة دقيقة، كما أنّها ليست معنيّة بالعبارات النمطيّة التي تسبق الحكي وتتلوه، ولا تتقيّد بوقت معيّن تُروى فيه، ولا ترتبط بمناسبات معيّنة، كما أنّها لا تتطلّب جمهورا كبيرا، ويكفي أن يستمع لها شخص واحد، في أيّ زمان ومكان. وروايتُها ليست حكرا على الرواة المحترفين، إنّما يرويها جميع الناس، من مختلف الأعمار، ومن الجنسين. سمحت لها مرونتُها الشكليّة بأن تغترف من الأنماط الأخرى..[...] تتّخذ الحكاية الشّعبيّة مادّتها من عناصر مستمدّة من الواقع المعاش الذي يحياه الناس الذين يتداولونها، فتصوّر موقفا من مواقف هذا الواقع. من خلالها نتبيّن طموح الإنسان إلى مراقبة واقعه وإخضاعه للملاحظة، ومحاولة توجيهه، وإيجاد حلول للمعضلات التي يطرحها، والسّعي إلى الإجابة على مجموع الأسئلة التي يثيرها. يتوسّل إلى ذلك عن طريق التّخييل المستند فيما يبنيه من صور قصصية أحيانا على التّصوّرات العقائديّة مثل الاعتقاد في "القدر" وفي "البخت"، والإيمان بوجود إرادة عليا توجّه الكون وفق خطّة مرسومة بصفة مسبقة. >>[3]. قصدنا من إيرادنا لهذا الاستشهاد الطويل نسبيّا إلى بيان خصائص هذا النوع بخصوص ظروف إنتاجه وتداوله وطبيعة مضمونه.

3-بناء الأحداث في حكايات "Légendes"

تعتمد القصّة التي بين أيدينا بصفة أساسيّة في بناء أحداثها على "العجيب"، باعتباره آليّة سرديّة يميّز جزءا كبيرا من تراث منطقة التوارق. تستند القصّة على موضوعة تحوّل الكائنات الماورائيّة المتمثّلة في الجنّ إلى كائنات حيوانيّة. وهي في تحوّلاتها تشغل مواضع يرتادها البشر، وخاصّة منها القفار والمواضع التي يخيّم فيها البشر في تنقّلاتهم في الصحراء الكبرى الإفريقيّة من خلال القوافل المرتحلة. سننظر إلى العجيب في هذه القصص باعتباره مكوّنا تراثيّا تلجأ له المخيّلة الجمعيّة من أجل التعبير عن احتياجات نابعة من طبيعة الحياة التي كان يحياها الإنسان التارقي في وسط بيئي يتميّز بقساوة الطبيعة، وبندرة أسباب المعيشة والمياه. <<ولا بدّ من الاحتفاظ في الذهن، أثناء التحليل، بأنّ العجيب والخياليّ هما أيضا، تحويلات استيهاميّة fantasmées تسمح بتجاوز الضرورات والحدود الصارمة لواقع شديد القسوة من أجل التكفّل به أحسن. من هذا القبيل إذن، فإنّ جميع العناصر العجائبية fantastiques والمعجِبة fantasques في النصّ يمكنها بدورها أن توفّر نمطا من المعلومات. فهي تقول الكثير حتّى عن طريق عكس المعنى، كاشفة عن الشروط النفسية لأناس محكوم عليهم بأن يقاوموا مقاومة قاسية لكي يتحمّلوا ويعيشوا بوسائل قليلة. بالنسبة للأقوام الرحّل في السهوب وفي/أو الصحاري تقع المواجهة من أجل الحياة في وسط شديد الخشونة حيث تتظافر مشقّة الصحراء الطبيعية مع قساوة القاعدة الاجتماعية..>>[4].

لاشكّ أنّ القصص البطوليّة الخارقة التي دوّنتها "جان رونيه بوتيي"، قد حملت بصمات المؤلفة من حيث الأسلوب وتصوير المشاهد ورسم الشخصيّات، غير أنّ تجربتها باعتبارها مساعدة لباحث إثنولوجي أنجز أبحاثا في منطقة التوارق، قد فرضت عليها أن تكون أمينة إلى حدّ ما في نقل ما سمعتْه من الرواة، وهو الجانب الذي أغرانا بأن نبحث في هذه النصوص الواردة في هذه المدوّنة عن الخصائص الأنثروبولوجيّة للمجتمع التارقي من خلال تراثه الشفويّ الذي تناقله المستشرقون.

4--دراسة نموذج من قصص البطولة الخارقة:

روى القصّة الأولى التي سنتّخذها كنموذج ونتناولها هنا بالدراسة شخص اسمه "مَايْنَا"، وهو تارقيّ، كان يعمل في مجال الخدمات في صفوف الجيش الفرنسيّ في الجنوب الجزائريّ؛ تمّ تكليفه بمرافقة المؤلّفة في رحلتها إلى جانيت، وكان يتقن اللغة الفرنسيّة. لعبت هذه الشخصيّة دورين؛ دور السارد ودور الشخصيّة الرئيسيّة للقصّة في نفس الوقت. سنقوم في هذه الدراسة بتحليل مستويات النصّ المتمثّلة في كلّ من المسار السرديّ ومظاهر الخطاب، ثمّ الدلالة.

4-1-المسار السرديّ:

يروي السارد وقائع حدثت له لما كان في سنّ 19 سنة. وقد جرت هذه الأحداث أثناء رحلة قافلة من بلاد التوارق نحو السودان عبر صحراء تينيري. يمكن تقسيم النصّ إلى مقاطع تبعا لأحداثه الأساسيّة؛ يتمثّل الحدث الأوّل في قرار ربّ الأسرة أن يرحل بعائلته بغرض الذهاب إلى السودان للتجارة، ويمثل توقّف القافلة للصيد وتخزين الغذاء عن طريق صيد الغزلان، ولقاء الفتى "مَايْنَا" بالغزالة التي أنقذها فتكافئه، المقطع الثاني. في المقطع الثالث تعاني القافلة من نفاذ الماء، ويسعى الفتى للقاء الجنّيّة (الغزالة) من أجل طلب المساعدة، فيحضر محفلا للجنّ. في المقطع الرابع يساعد الجنّ الفتى على الحصول على الماء، ويتمّ إنقاذ القافلة من موت محتّم.

تجسّد المسار السرديّ من خلال الوظائف الآتية المبيّنة في الجدول التالي:

المقطع	أصناف الوظائف	الوظائف	ملخّص الجمل السرديّة
I	1-اضطراب	*نقص	-عانت الأسرة من نقص في أسباب المعاش
	2-تحوّل	*وساطة	-قرّر الوالد أن يرحل بأسرته إلى السودان بهدف ممارسة تجارة المقايضة.
	3-حلّ	*رحيل من أجل القضاء على النقص	-انضمّت الأسرة للقافلة التجاريّة المتوجّهة للسودان، بغرض ممارسة التجارة وكسب أسباب العيش.
II	1-اضطراب	*انتقال	-وصلت القافلة إلى موضع فيه لُقَاط وغزلان.
	2-تحوّل	*حصول أذى	-تمّ قتل عشرة غزلان، بغرض الحصول على الغذاء.
	3-حلّ	*تلقّي مساعدة	-تدخّل الفتى لينقذ الغزالة الحامل من القتل. وكافأته هذه

			الأخيرة بوصفها جنّيّة بمنحه حجر الزمرّد الأخضر.
III	1-اضطراب	*نقص	-فرغت قِرَبُ الماء
	2-تحوّل	*تهديد	-أصبح أفراد القافلة مهدّدين بالموت عطشا
	3-حلّ	*طلب المساعدة	-فكّر الفتى في اللجوء إلى الجنّيّة لإنقاذ القافلة من الموت.
IV	1-اضطراب	*انتقال	-انتقل الفتى إلى الموضع الذي يتواجد فيه الجنّ.
	2-تحوّل	*تلقّي مساعدة	-برزت الجنّيّة لتحمي الفتى من حيوانات الصحراء الخطرة
	3-حلّ	*مكافأة	-وفّرالجنّ الماء للقافلة؛ فتمّ إنقاذُها من الموت عطشا.

4-2-مكوّنات الخطاب القصصيّ:

4-2-1- البنية العامليّة

تَشَكَّلَ المسار السرديّ من أربع متواليات؛ المتوالية التمهيديّة التي تجسّد الوحدة القصصيّة السرديّة الْمُؤَطِّرَة للأحداث المرويّة، فتقدّم أسرة مكوّنة من الوالد والوالدة وولدين، أحدهما شابّ يافع، والثاني رضيع. تعاني الأسرة ضنك العيش بسبب نقص أسباب المعاش، ممّا يدفع الأب لأن يفكّر في أن ترافق العائلة قافلة تجاريّة، وتحمل معها موادّ قابلة للمقايضة في بلاد السودان، لتمارس التجارة، بغرض كسب معاشها (موضوع المتوالية). يلعب الأب دور المرسِل الذي يوجّه فعل الشخوص لتحقيق الموضوع، فتكون بذلك الأسرة هي الذات الفاعلة التي يُنَاطُ به القيام بفعل الوساطة من أجل تحقيق الموضوع والقضاء على النقص عن طريق السعي لكسب أسباب العيش، وتلعب "القافلة" دور المساعد على هذا التحقيق، بينما تجسّد الصحراء القفراء دور المعارض الذي يعوق هذا المسعى. تروي المتوالية الثانية حدث تخييم القافلة في موضع تعيش فيه الغزلان، ممّا سيغري أفراد القافلة بأن يصطادوا عددا من هذه الغزلان؛ فيقومون بقتل عدد منها، ليتّخذوه مخزونا غذائيّا، يعينهم على قطع طريق الرحلة.

يقوم السرد بالتهييئ لفعل البطولة، وبالتالي لظهور شخصيّة البطل، والذي سوف يتمثّل في الشابّ "مَايْنَا" الذي يتدخّل لإنقاذ "غزالة حَامِل" كاد أن يقتلها الأب. تمّ إسناد دور المرسِل لحاجة القافلة للحصول على غذاء ماتِع يتّخذه أفراد القافلة زادا، يتقوّتون به. ويمثّل الصيّادون دور الذات الفاعلة المحقِّق لموضوع "اصطياد الغزلان"، ويكون وجود هشيم اللقاط الذي ترعاه الغزلان، وكذلك بنادق الصيد هما العامل المساعد على إنجاز الفعل القصصيّ. بينما يقوم بدور المعترض على إنجاز فعل الصيد الشابّ "مَايْنَا". يمثّل جميع أفراد القافلة الجهة المرسَل إليها، بينما يكون المرسِلُ عَامِلٌ اعتباريّ يتجسّد في عمليّة توفير الغذاء. في المقطع الثالث يتجسّد الفعل القصصي في كارثة "نقص الماء" الذي عانت منه القافلة وهي تقطع صحراء "تينيري" القاحلة، وتكون الذات المتضرّرة من هذا النقص متمثّلة في جميع أفراد القافلة، وتجسّد قفار "تينيري" العامل المساعد على تحقّق هذا الموضوع، أمّا دور العامل المعارض فيقوم به الوالد الذي يرسل شخصين يبحثان عن الماء. أمّا المرسِل فهو كائنات الجنّ المتخفّية في الصحراء، والتي رغبت في معاقبة صيّادي الغزلان (التي كانت جنّا متحوّلة في هيئة حيوان). وقد أسنِد دور المرسَل إليه إلى القافلة التي أصبحت مهدّدة بالهلاك من جرّاء العطش. يلعب الفتى "مَايْنَا" دور الذات الفاعلة في المقطع الرابع الذي يتمثّل موضوعُه في الحصول على الماء، ويكون المرسِل الجنّيّة، المقيمة في الصحراء والمتحوّلة إلى غزالة ذات قرنين من الزمرّد، بينما يمثل دور المرسَل إليه أفراد القافلة. ويلعب الجنّ المسخَّر لإحضار الماء العامل المساعد، وكذلك حجر الزمرّد الذي كان في حوزة الفتى بطل هذه المتوالية.

يمكن بيان بنية الأدوار العامليّة المذكور آنفا عن طريق الجدول التالي:

المقطع	المرسِل	الموضوع	الذات الفاعلة	المرسَل إليه	المساعد	المعارض
I	الوالد	كسب المعاش	الأسرة	الأسرة	قافلة التجار	الصحراء
II	توفير الغذاء	صيد الغزلان	الصيّادون	القافلة	البنادق، المرعى	الفتى مَايْنَا

III	الجنّ	نقص الماء	أفراد القافلة	الصيادون	قفار تينيري	الوالد
IV	الجنّيّة (الغزالة)	الحصول على الماء	الفتى مَايْنَا	القافلة	الجنّ المسخّرين حجر الزمرّد	X

4-2-2- الأدوار الموضوعاتيّة:

أبرزت القصّة الأدوار الموضوعاتيّة الأساسيّة، وهي: الوالد، الفتى "مَايْنَا"، الجنّيّة الغزالة. ينتمي الأوّل والثاني إلى العالم المعلوم، بينما تنتمي الأخيرة إلى العالم الآخر. يُلاحَظُ أنّ جميع هذه الأدوار ليست مُتَصَادِمَة، بل هي متكاملة ومنسجمة؛ سعت جميعا لإظهار مدى تحكّم العالم الآخر (عالم الجنّ) في عالم البشر. فمفهوم الصراع الدرامي غائب في القصّة، وقد تمّ تعويضه عن طريق تواجد كيانين متقابلين هما البشر والجنّ. يعيش البشر على الأرض مرئيّين يشقون لكسب رزقهم، ولهم احتياجات مادّية لابدّ من تلبيتها تتمثّل في المأكل والمشرب، يعيشون في محيط قاس، بينما تعيش الجنّ متخفّية في محيط مُتْرَفٍ، وفق طقوس عجيبة وطريفة، وتظهر بين البشر متحوّلة على شكل حيوانات. يعتدي البشر على بعض هذه الحيوانات ليصطادوها ويتغذّوا منها، دون قصد منهم لإلحاق الضرر بعالم الجنّ، فيتعرّضون للعقاب المؤقّت، وتُهَدَّدُ حياتُهم، لكنّهم يُنْقَذُونَ في النهاية بفعل سلوك استثنائي يصدر عن فرد بشريّ تمثّل في هذه القصة في شخصيّة "مَانْيَا" الترقي. يمكن تلخيص هذه الأدوار كالآتي:

-أب وابنه الأكبر يتحمّلون مسؤوليّة البحث عن الرزق لتحيا عائلة في محيط قاس، ينضمّون إلى قافلة، ويرتبط مصيرهم بأفراد القافلة الذين يتعرّضون للتهديد بالهلاك عطشا.

-أفراد قافلة صيّادون مهرة، يعثرون على مرعى للغزلان، فيقتلون عددا منهم. يتبيّن أن هذه الغزلان عبارة عن جنّ متحوّلة في هيئة حيوانات، يتعرّضون للانتقام من قِبَلِ هذه الكائنات المخفيّة بحرمانهم من الماء، فيتهدّدهم الموتُ عطشا.

-جنّ متخفّون يعيشون في رفاهيّة في الصحراء، يتعرضون لاعتداء من قِبَلِ بشر. يخضعون لسلطة جنّيّة. ينتقمون من البشر المعتدين بتهديد حياتهم.

-يتدخّل "مَانْيَا" فينقذ جنّيّة حامل في هيئة غزالة من القتل.

-تتدخّل الجنّيّة التي أنقذها "مَانْيَا" من القتل، فتجازيه بأن تمكّنه من طلسم يستدعيها عن طريقه في لحظة الحاجة إليها.

-ينقذ "مانيا" القافلة من الهلاك عن طريق الانتقال إلى عالم الجنّ بفضل الطلسم، وطلب النجدة من سيّدة الجنّ.

4-2-3- التحريك والأداء والتقييم:

أُسندت عمليّة التحريك؛ ونقصد بها هنا التحفيز والتوجيه في بداية القصّة للأب باعتباره ربّ الأسرة الذي قرّر أن يلتحق بالقافلة ليرحل بأسرته بغرض التجارة. ظهرت في المرحلة الثانية سلوكات جماعيّة صدرت عن أفراد القافلة الصيّادين، دافعها تحسين نوعية الغذاء عن طريق اصطياد الغزلان وشيّ لحمها ثم تخزينه كزاد للطريق، غير أنّ هذا الدافع تسبّب في أذى لكائنات الجنّ، وعرّض مصير القافلة للهلاك بسبب تسليط العقاب على أفراد القافلة وتجفيف قرب الماء. تطلّب ذلك تدخّل جهة تحريك جديدة تمثّلت في الغزالة الجنّيّة التي حفّزت شخصيّة مَانْيَا لكي يقوم بإنقاذ القافلة، ومكنته من القدرة على التواصل مع عالم الجنّ، مكافأة له على صنيعه لما أنقذ الغزالة وأولادها من القتل. مكنت جهة التحريك هذه البطل من الحصول على الماء الذي أنقذ الموقف في نهاية القصّة. عيّنت القصّة أيضا جهة الأداء التي تداول على القيام بدورها كل من الأب والابن الشابّ والصيادون، ثم الجنّية، ومن سخّرتهم من بني جنسها للقيام بمهمّة توفير الماء. تمّ تقييم سلوكات الشابّ إيجابا ممّا مكّنه من تحسين مصير الجماعة البشريّة، كما اعتُبِرت سيّدة الجنّ كائنا خيّرا فَقُيِّمَتْ سلوكاتُها إيجابا، بالرغم مما لحق البشر من أذى بسبب ما سلطته عليهم من عقاب. وهو عقاب بدا مُسْتَحَقًّا، مَثَّلَ عِبْرَةً حملتها القصّة لتكون درسا للبشر الذين عليهم ألاّ يَفْتِكُوا بالطبيعة مُمَثَّلَةً في الغزالة الحامل.

4-2-4-دور المكان في الإيحاء بالدلالة:

جرت أحداث القصّة في الصحراء، وقد تمّ وصف الظروف المكانيّة والزمانيّة التي جرت فيها الأحداث، وكان ذلك دالاّ على الجوّ الدرامي الذي عبرت عنه القصّة من خلال صراع الإنسان مع

الطبيعة. وقد جرى نوع من التدرّج في تقديم البيئة الصحراوية القاسية، بحيث جرت الأحداث الأولى في منطقة يوجد فيها بعض النبات الجافّ، بينما جرى الحدث المأساوي المتعلّق بتعرّض حياة القافلة للهلاك عطشا في صحراء التينيري، وهي منطقة قاحلة شديدة القساوة. كما قُدّمت هذه المنطقة باعتبارها مسكنا للجنّ، التي تحوّلت فيها إلى حيوانات، بعضها من جنس الغزلان، وبعضها الآخر حيوانات خطِرَة على حياة الإنسان مثل العقارب والحيّات السامّة. وقد مثّل الماء العنصر الطبيعيّ الثمين الذي يتسبّب نقصه في الهلاك. يتحكّم فيه عالم الجنّ، ويكون بالتالي أداة تستعملها قوى العالم الآخر للتحكّم في عالم البشر.

بالرغم من الجوّ المأساويّ الذي أوحت به أحداث القصّة، تخلّلتها لحظات عرض لمشاهد بهيجة وأشياء جميلة مثل قرني سيّدة الجن التي تظهر في صورة غزالة ذات قرنين من الزمرّد. كما يوفّر النصّ مشهدين في غاية الروعة لما التقى البطل بالغزالة وقدمت له الطلسم كهديّة، ثمّ مشهد اختراقه للعالم المجهول وحضوره لمحفل الجنّ الراقص، وهو مشهد يصلح لأن يكون فُرجَة ممتعة لو تجد هذه القصة طريقها للتصوير السينيمائي أو المسرحيّ.

5–نصّ القصّة البطوليّة الخارقة:

<< منذ اثني عشرة سنة لما كنتُ في التاسعة عشرة من عمري، سافرت برفقة والدي ووالدتي وأخي الأصغر وبعض التوارق نحو السودان، كان علينا ان نقطع قِفَارَ التينيري Ténéré الشّاقّة، وهي صحراء بدون ماء ولا نبات، إنها أرض مُرْعِبَة، أرض العطش والجنّ الشرّيرة. حملنا معنا الغذاء الضروريّ ووفرة من قِرَبِ الماء. سرنا أيّاما ولياليٍ. وصلنا موضعا فيه لُقَاطٌ[5] كثير، وأبصرنا عددا كبيرا من الغزلان، وكان المسافرون يهوون الصيد. كان كلّ واحد منهم وكذلك أبي يحمل بندقيّة. كانوا يطلقون النار، ويتمكنون من صيد الغزلان. وُضِعَتْ أمامنا عشرة فرائس. رجوتُ والدي بأن لا يُطلِق الرصاص على غزالة، كان بطنُها منتفخا. قلتُ له: "–اترُكها إنّها على وشك الولادة." استجاب والدي لطلبي وامتنع عن إطلاق الرصاص.

لما جاء الليل سلخ الصيادون الحيوانات وتمّ سريعا شويُها. لم نكن بعيدين عن معبر تينيري الشاقّ. فَكَّرْتُ مع نفسي قائلا: "هناك وفرة في الغذاء بعد عمليّة الصيد هذه، لكن هل هناك ما يكفينا من الماء؟"

في هذا المساء تناول المسافرون وأنا ووالدي ووالدتي وأخي الأكل حدّ الشبع. بالنسبة للتوارق الذين تعوّدوا على الاكتفاء بقليل من حليب الناقة وقليل من التمر، ما تناولناه خارقٌ للعادة لا يُنْسَى. تساءل أبي، إثر قيامه بما يجب عمله، موجّها الحديث للدليل: -كم من يوم بقي أمامنا لكي نصل إلى صحراء التينيري؟... أجاب مُرافقُنا الدليل: "-بقي أمامنا يومان أو ليلتان. وأضاف: -تعهّدوا الْقِرَبِ، لم أقم أبدا في حياتي بمثل هذه الرحلة، لكنّي على علم بأنّ أكثر من واحد من قبيلتنا لم يَعُدْ. لقد هَلَكَوا عَطَشًا !.".

قمتُ بتفقُّدِ الْقِرَب، كان قد تبقّى منها عشرون، ممتلئة، وفي حالة جيّدة. أردف قائلا:

-أوه!. علينا ألاّ نستعمل الماء إلاّ قليلا، ستسير الأمور على ما يُرَام. سوف نرحل غدا مع طلوع الفجر.

في الغد، شرعنا في السير قبل طلوع الشمس؛ بعد ليلة أخرى سنكون قد وصلنا إلى الْمَعْبَرِ الْخَطِرِ!. في منتصف النهار كنّا قد قطعنا شوطا لا بأس به، وبعد التوقّف للاستراحة، مضى على سيرنا حوالي ثلاث ساعات مشيا بالمهاري قبل ولوج صحراء القفار. لم ينل منّا التعب، مع إدراكنا للخطر الذي يَتَرَقَّبُنَا، قرّر والدي أن لا نُوغِلَ بعيدا هذا المساء. فعلينا أن نتوقّف للتخييم قبل استئناف سير الثلاثمائة كيلومتر الْمُرْعِبَة. كنّا قد خلّفنا وراءنا آخر بئر وتجاوزناه بعدد كبير من المواضع. لم يعد هناك فيما سيأتي سوى مواضع ينعدم فيها حتّى المرعى.

كنّا قد تمدّدنا جميعا، ملتفّين بالدوكالي (أغطية ذات شرائط حمراء). كنتُ على وشك النوم لما شاهدتُ على مقربة منّي على الرمل نقطتين بلون أخضر زَاهٍ وفاتح ولامع، تشكّلان حولهما هالة مضيئة.

اقتربتُ، تسلّلتُ رويدا رويدا، وسمعتُ صوتا يقول لي: "-تَعَالَ.. تَعَالَ اقترب أكثر!.". مشيتُ، وكأنّني منجذب على الرغم منّي. لفّني دخان أزرق: كان لهذه النفثات الغاوية أشكال جنّ ترقص، وترقص، ثمّ إنّه وبصفة مفاجئة، إذا بالدائرة التي لفّتني انفتحت لتسمح بمرور غزالة، في منتهى الأناقة، في منتهى الجمال!. كانت لها عينان واسعتان جميلتان ينبعث منهما وميض فوسفوريّ، كانت قرناها من زمرّد، وخاطبتني.استمعتُ إليها بدون أن أُفَاجَأَ. قالت: "-غدا، عند استيقاظكم، سوف تُصْعَقُونَ!. ستجدون قِرَبَكُمْ خاوية، ما عدا اثنان منها؛ تكون هي وحدها زادكم من الماء من أجل اجتياز التينيري. إن الغزلان

التي قتلتموها، نعم!. اللحم المشوي المتبقّي سوف تتضاعف كمّيّتُه، سيكون ذلك هو الدليل على صدق أقوالي. سيكون بين أيديكم الكثير من اللحم المشوي، الكثير، لكن لن تكون هناك قطرة من ماء، أو يكاد يكون الحال كذلك!.

مع ذلك، أنتَ، مَايْنَا الصغير، كنت معي مُحْسِنًا. أنا الغزالة التي تَرَجَّيْتَ والدك بأن لا يقتلها؛ بعد رجائك وضع بندقيّته، فلم يُطلق النار!. في الليل، بعد عمليّة الصيد التي مازال يرتعش لها بدني، وضعتُ أولادي. عند استيقاظ القافلة، لا تتحدّث عن حوارنا الليلي هذا، اتركهم جميعا حَزَانَى، وواصلوا طريقكم بالقليل من الماء المتبقّي معكم. إنّ "التينيري" ليست خالية من المياه؛ غير أنّ الجنّ وحدها هي التي توفّره، إنّها تحبّئ بكلّ عناية هذا الكنز لحيوانات الصحراء. تعرف الجنّ مدى ما يتّصف به البشر من شرّ فتخفي عنهم مياه التينيري ومراعيها. الحيوانات نفسُها تكون مُتَخَفِّيَة، مع أنكم تعثرون على آثارها.

إثر هذه الكلمات، مالت الغزالة، نطحت بقرنيها صخرة؛ انفصلت عن إحداهما قطعة من الزمرّد الذي قُدَّت منهما القرنان، حينذاك قالت لي: "–خذ هذه الحجرة، ستكون بالنسبة لك بمثابة طلسم تمنع عنك الهلاك عطشا. لما ينفذ الماء ولا تبقى سوى قطرة واحدة، تقوم أنت وحدك، ليلا، لما يكون البدر قمرا مكتملا، ارفع الحجرة عند المنبسط الرملي الذي سوف يُرسِلُ شُعَاعًا شبيها بذلك الذي قادك عندي. في هذه اللحظة، لا تخش شيئا، سوف تشاهد منظرا غريبا؛ لن أقول لك شيئا!.فقط، شيء واحد أوصيك به:لا تقتل أبدا غزلانا!..

قمتُ فجر، هل كان ذلك حلما رأيتُه في منامي؟ لكن، هنا، إلى جانبي، وجدتُ الحجرة الخضراء التي منحتني إيّاها الغزالة التي كانت جنيّة خيّرة، على الأقلّ بالنسبة لي. ليس هناك إذن داع للشكّ!.. إنها هذه الحجرة التي أخذتها فيما بعد إلى "مْعَلَّم"، صائغ ذهب، فقام بتركيبها على خاتمي.

لكن، حواليّ، تصاعدت الشكوى، كنتُ أسمع التأوّهات الصادرة عمن كانوا معي. والدي ومن كان معه أدركوا ضياع الماء، وكنّا في عتبة الصحراء القفراء !. بعد تأوّهات الشكوى، حدثت الكارثة، قال أبي:

"– ما شاء الله كان!.".

نضب ماء القرب، كيف، وما الذي حدث؟ فعلا أصبحت فارغة!.لا، لم أكن أحلم، لقد حذّرتني الجنّيّة!. أرسل أبي اثنين من رجاله إلى آخر بئر. انتظرناهما النهار كلّه. عادا وقد هبط الليل بِالْقِرَبِ فارغة، وجدا فعلا الموضع الذي عمّرنا منه الماء، غير أنّ النبع جفّ!.. قال أبي: "-سيحدث الموت، علينا بالتقدّم إلى الأمام، إنّه المكتوب!.."

رفعنا الحمولة والحزن يعتصرنا، من أجل الرحيل، هل كان هناك قدر وفير من الغذاء؟... مع الأسف!.. هناك الكثير من لحم الغزال المشويّ!.. هل لجمالنا قوّة لحمل المزيد من هذا اللحم؟ لاشكّ أنّ والدي تعجّب من كون عمليّة الصيد قد وفّرت هذا اللحم الكثير الصالح للأكل، فبالرغم من الساعات الطوال التي تفصلنا عن زمن طهيه، وبالرغم من الحرارة ومن طول المسافة المقطوعة، ظلّ هذا اللحم المشوي سليما، مازالت تنبعث منه رائحة الشيّ الشهيّة. كنّا قد حملنا كلّ شيء، كان والدي قلقا من وفرة هذا الغذاء ونقص الماء. لما رفعنا آخر كتلة من لحم الغزال المشويّ، عثرنا على قربتين ممتلئتين، كان جلدهما في أحسن حال. قال والدي"-الله أكبر". تشجّعنا بما عثرنا عليه من ماء، واستأنفنا الطريق. كانت ثقتي كبيرة، كنتُ أودّ أن أثق في حلمي، أي في وعد الجنّيّة، ولكنّا كنّا خمسة عشر شخصا في القافلة!.. كانت الجمال قد شربت من آخر بئر، هي على الأقلّ بإمكانها أن تعيش عددا من الأيّام.

ها نحن في التينيري!.. هبّت ريح سُخْنَة قويّة، الرمال التي كنّا نلقاها أحيانا في طريقنا ارتفعت لِتُشَكِّلَ زوابع جعلت السير شاقّا جدّا، وجفّفت حلوقَنا. لم نعد نلجأ لمخزوننا من الماء إلاّ قَطْرَةً فَقَطْرَة، فنكتفي بِجُغْمَاتٍ قليلة، فقط لما تلتصق ألسنتُنا بتيجان أفواهنا كثيرا فتؤلمنا. لم تكن عينيّ تفارقان القربتين المسكينتين، مع أنّ أملي ظلّ قائما؛ كان رفاقي يوجّهون أنظارهم نحوهما، وكانت نظرتُهم هذه مُحَمَّلَة بابتهالات، فمن ساعة لأخرى القربتان المعلقتان مُعَرَّضتان للإصابة بالضمور، فالريح الحارقة، بالرغم من سائل الغار الذي يطلي جلدهما من الداخل، يتسبّب في تبخّر هذا السائل الثمين. بعض الإشارات الصادرة عنهم تعبّر عن شعور بالاهتياج لما يسعى أحدنا إلى أن يَبُلَّ شفتيه الملتهبتين. في المرحلة الأولى لم نجتز سوى حوالي ثلاثين كيلومترا.

أبدا، لن يكون هذا القدر من الماء المخزّن المحدود جدّا كافيا، كان الكثير من رفاقي غير مبالين، سعيتُ للحفاظ عليه قدر الإمكان. تسبّب لي ذلك في تهديدات بالموت، وأعتقد أنّه لولا سلطة والدي، كانوا سيقتلونني!... بقيت أمامنا عشرُ أيّام من السير، وكانت قافلتُنا تسير بمشقّة.

كان والدي حزينا، يلحظ أنّ والدتي كانت قلقة ومُتْعَبَة، كانت تُرضِعُ كما ذكرتُ أخا لي أصغرا. كان قد بلغ حوالي تسعة عشر شهرا. ثمّ إنّه كان علينا أن نَبْلُغَ السودان، كنّا سنقوم بعمليّات مُقَايَضَة، فنشتري قطنيّات، أفرشة من جلد؛ لم يكن لدينا شيء نبيعه في زريبتنا. أكواخنا من القصب، والقليل مّا كنّا نملكه وكان متواضعا، دفعه أهلي لتنظيم هذه الرحلة. لو أنّنا نخسر، ستحدث الكارثة، ونصبح لا شأن لنا. فالتوارق فخورون بما يملكون، وحسّاسون لفقدان الشرف، فهم يفضّلون أن يموتوا إن حصل ذلك، لهذا كنّا على الدوام على هذه الحال. حافظتُ على هدوئي، بمزاج منبسط كثيرا، وهو ما عنى لوالدي بأنّي كنتُ عديم الإحساس وقليل المودّة له ولوالدتي ولأخي الصغير. لم أكن أنطق بشيء لكنّي كنتُ أضمّ بعناية إلى صدري الْحَجْرَةَ الخضراء، هذه القطعة المنفصلة من أحد قرني الغزالة، هذه الجنّيّة الْخَيِّرَة؛ فكلّما بدا لي بأنّ ساعة الألم الكبير والحرمان الْمُرْعِب تقترب يزداد إيماني بوعدها لي، كانت هذه الثقة هي السبب في انبساطي.

توقّفت القافلة للاستراحة، وشرعنا في تناول الطعام، كنا في حاجة ماسّة للشرب، كانت والدتي الأكثر حاجة إلى ذلك؛ لما تناولنا الطعام جميعا، أَوْشَكَتْ آخِرُ قِرْبَةٍ على أن تفرغ. بعد زمن قليل، غَلَبَنَا النعاسُ جميعا. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحا لما استأنفنا الطريق. كان أفراد القافلة مُنْهَكِين، خاصّة وأنّهم أصبحوا يفتقدون للشجاعة، يستبدّ بهم الخوف، توقّعا لموت مُؤَكَّدٍ. على العاشرة صباحا توقّف مسيرُنا بسبب الشمس الحارقة، فقد كانت الحرارة غير محتملة. تمّ توزيع الماء المتبقّي بكمّيات ضئيلة، مع الأسف!.. لقد نفق الماء، ولم يبق منه شيء. استبدّ بي القلق، وقلتُ في نفسي: "-في هذه الليلة، عليّ ان أستعمل طُلْسُمِي. ألم يكن الأمر مُجَرَّدَ حلم؟.. وإذا كان ما قالته لي الغزالة ذات القرنين المنيرين وهما!.. هل كانت جنّيّة خَيِّرَة أم هي شرّيرة؟..

غير أنّ ألقا رقيقا من الحرارة لامس قلبي؛ فتّشتُ في جيب قندورتي، عثرتُ على الْحَجْرَة الثمينة، تأمّلتُها، نعم، كانت تَشِعُّ ومن هذه الخضرة الشفّافة مثل قرني الحيوان الجميل ذي العينين اللذين يصدر عنهما شعاع فوسفوريّ اللون، وخجلتُ حينها من لحظة ضعفي.

"–لا، لم يكن ذلك حلما، لقد شاهدتُ فعلا الجنّيّة ذات القرنين الخضراوين ما دمتُ أحوز على الْحَجْرَة التي منحتها لي. أمر والدي بعد صلاة المغرب باستئناف المسير، كان علينا أن نستمرّ حتّى تَنْضَبَ نهائيّا جميع قوانا. وهكذا سرنا!..

كانت الليلة لطيفة ورائعة، أنار القمر الطريق، كان الهواء أكثر طراوة ممّا منح القافلة شيئا من الشجاعة. هكذا سرنا حتّى منتصف الليل. لم ينطق أحدٌ منّا بكلمة، في أفواهنا آلَمَنَا أكثر فأكثر جَفَافُ رِيقِنَا: لم يبق هناك داع لتردّدي: عليّ أن أتصرّف حالا عن طريق حَجْرَتِي الثمينة. لم يبق أمامي وقتٌ للانتظار، وما أن اعتزم القوم التوقّف، وغرق الجميع في نوم عميق، كانوا حزانى، يائسين ممّا جعل أجسامهم الْمُتَصَلِّبَة تبدو وكأنّها جُثَثٌ. من واجبي أن أساعدهم. قمتُ وتأمّلتُ القمر، كان مكتملا، نظرت إليه، بدا لي انّه يبتسِمُ لي، ركّزتُ نظري فيه وبدالي أن له هو أيضا قرنان صغيران، لكنّهما ذهبيّان. هبّت عليّ نسمة خفيفة. حينئذ ابتعدتُ عن المخيّم، سرتُ على شِمَالِي إذ أنّ زفرة نديّة مُعَطَّرَة بالمسك، من هذه الناحية، تقودني، هكذا مثلما أوصتني الجنّيّة، رفعتُ حَجْرَتِي وأمسكتُ بها، مُحَوِّلًا كَفَّ يَدِي نحو المنبسَط الرمليّ.

على بعد مائة متر من موضعي، انبعث من المنبسط شعاعٌ منيرٌ، شديدُ الخضرة، في غاية الجمال!.. حيث أنار بالضبط دائرة بدأتُ شيئا فشيئا أستبين تفاصيلها: صفّ أوّل مُشَكَّلٌ من نُثَارٍ توقّف عن سباحته في الجوّ وحطّ على الرمل وكأنّه عقد؛ في الصفّ الثاني، خلف النَّثَارِ، كانت هناك عَلَاجِمُ تَنِقُّ فَرِحَةً، وكأنّها تُنْشِدُ نوعا من الابتهال في مديح الماء. في الصفّ الثالث كانت هناك جَرَابِيعُ، حيوانات صغيرة تمثّل قُنْغُرَ الصحراء الإفريقيّة، كانت بدورها مُنْتَظِمَةً كآلئ مخمليّة؛ يليها صفّ من ثعالب الصحراء الماكرة، التي كانت مَقْعِيَّة على مؤخّراتها بكلّ هدوء؛ ثمّ تصطفّ العقارب ذات الإبر الْخَطِرَة والسامَّة، وفي الآخر هناك الحيّات السامّة ذات القرون. لماذا تمّ اختيار هذه الحراسة الخلفيّة من بين

جميع الحيوانات الأكثر فتكا في هذه الأنحاء؟ هل كان ذلك من أجل الدفاع عن مركز الدائرة؟ مع ذلك، كنتُ أحسّ بالانجذاب نحوه.

كان يبدو أنّه منشغل بنار لا تُرى، يحرّكها تيّار هوائيّ قويّ حيث تنبعث دائرة جهنّميّة من الأدخنة الزرقاء؛ عبر هذا الغيم، كنتُ أقترب أكثر فأكثر، تمكّنتُ من مشاهدة الجنّ، كانت جميعا هناك، ترقص، تمدّ لبعضها الأيدي. بقيتُ أنتظر، ما الذي سيحصل؟ أصبح مركز الدائرة شيئا فشيئا مُبْهِرًا. كانت وضعيّتنا جدّ مأساويّة؛ بقدر ما كانت الْحَجْرَة الصغيرة خضراء، كنتُ أمسك بين يديّ بما ينقذني، وبما ينقذ أهلي وما يمكن أن ينقذ جميع القافلة؛ تجرّأتُ وتقدّمتُ بخطوة.

تحوّل محفل الجنّ إلى قفزات مُهْلِكَة، إلى عروض بهلوانيّة منقطعة النظير وتبدّلت وجوههم الخارقة للعادة، والتي ليس بالإمكان وصفُها، لتتلبّس ملامحُها بِتَكْشِيرَاتٍ بَشِعَة. كان النثار وثعالب الصحراء والعلاجم تقفز وتصدر عنها صيحات غير متناغمة، توجّه العقارب إبرها وتصفّر الحيّات. كنتُ على أهبة الهرب، لولا أنّه بصفة مفاجئة أقبلت الغزالة ذات القرنين الأخضرين. نعم، إنّها هي نفسها لأنّ أحد قرنيها كان أقصر من الآخر. "–مَايْنَا، لا تخف، أنا الجنّيّة التي أنقذتها؛ تملك قطعة من قرني الْمُكَسَّر، ضعه على قرني الْمُقَصَّف وسترى أنّه انفصل عنه. اقترب، أيّها الشاب التارقي الباحث عن الزمرّد والذي كان الأسلاف، حسب مؤلفي الكتب القدامى، يبحثون عن هذه القطعة الثمينة منه. تعال إلى مركز الدائرة. لتهدئي أيّتها الحيّات العدوانيّة، ويا أيتها العقارب السامّة، هذا الشابّ صديق"، –تقدّمت نحوي الحيوانات بهدوء–، كرّرت قولها لي "–تعال إلى المركز، أنظر هنا، في هذه النقطة اللامعة، الخضراء مثل قرناي؟ لِتَتَلَمَّسْهُ!..

فعلتُ ما أمرتني به الجنّيّة، فتلمّست هذا النور، أحسستُ بأنّه تلبّس بإصبعي. قالت: "–إنّه خاتم من حجر أسود مثل هذا السوار الذي تراه في معصمي". وأمرتني الغزالة بأخذه قائلة: "–خذه، إنه لك!..". سَحَبْتُ، وبدون جهد، انجذبت معي بلاطة رمليّة. انحنيت فوق ثقب مُظَلَّلٍ، لأنصت. انبعث من حنايا الأرض، صوت خَرِيرِ مِيَاهٍ مُبْهِجٍ، في البداية ظننتُه ضَحِكًا، لكنّي أدركتُ أنّه ضجّة أحدثتها مياه جارية، مثلما هو الحال في ساقية في الواحات، لما تَتَشَكَّلُ شلالاتٌ صغيرة. لم أكن أتصوّر أنّه تحت هذه الأرض القفراء، يمكن أن يكون هناك مياه بهذا القدر، لم يكن ذلك بالنسبة لي سوى بداية المفاجأة، لأنّه

سرعان ما رأيتُ أشكالا تتجسّد، فمن هذا البئر العجيب كانت جنّ تصعد، حاملة لدلاء ممتلئة ماء. كان لهاته الجنّ أجسام شفّافة، وكأنّها زجاجات كبيرة مقعّرة، لم يكن لها سوى عين واحدة في منتصف الجبهة.

خاطبتني الغزالة قائلة: "-اذهب وهات قِرَبَكَ الفارِغة.". دقّت على الأرض بأضلافها، وظهر بجانبي حمار صغير بنّيّ اللون، لا أدري من أين جاء!.. قالت: "-هاهو الذي سيحمل عنك.. اذهب وآت بالْقِرَبِ.

في المخيّم كان الجميع في سُبات عميق. كنتُ أعرف أين توجد القرب ذهبتُ سريعا فحملها الحمار، وها نحن نعود للبئر. وبمساعدة الجنّ، ملأتُ قِرَبِي؛ لما أحصيتُها، وجدتُ مائة!.. فيما بدا لي، وكنتُ متأكّدا بأنّ القافلة لم تتخلّص من عدد كبير من هذه الأوعية. اختفت الدائرة المضيئة. رحل النثار، الجلاغم، الجرابيع، ثعالب الصحراء، الحيّات، العقارب، كانت جميعا قد شربت من البئر. كانت الجنّيّة على مقربة منّي. شكرتُها فقد أنقذت حياتنا. ردّت قائلة: "-ألم تُنْقِذْ أنتَ حياتي وحياة أولادي؟.

أصبح بدنُها أثيرا، انقشع؛ قرناها اللامعان ليلا وحدهما صعدا ببطء ليعلقا بالغيوم: لقد أصبحا نجمتين، وظَلّا مثبتين في الكوكب الذي نسمّيه إيهنكاذ: الغزلان.

غادرتُ هذه المواضع، ملفوفا بغيمة تتضوّع مسكا. عدتُ إلى المخيّم، لم تحدث أيّة حركة، أنزلتُ حمولة الحمار الذي سرعان ما اختفى حيث ضاع بين ذرّات الرمال. كنتُ مُنْبَهِرًا، أخذني الدوار، فنمتُ.

عند استيقاظي، سمعتُ والدي يقول: "-لقد هبّت الرياح الرمليّة في هذه الليلة؛ في هذه الساعة، ثمّ توقّفت العاصفة، ولتنظروا جميعا كيف أنّ القرب جميعا امتلأت!..

لم يتفاجأ والدي. قال فقط: "-مكتوب !.." في هذه الليلة رأيت في الحلم، شيخنا، المرابط الذي نقدّسه، كان ذلك فأل خير.>>[6].

خاتمة:

تأسيسًا على ما تقدّم، يتّضح أنّ كتاب القصص الخارقة التارقيّة لا يقدّم مادّة حكائيّة صحراويّة فحسب، بل يكشف عن بنية سرديّة مركّبة تتداخل فيها اليوميّات الرحليّة بالخبر الإثنوغرافي، وتمتزج فيها شهادة المستكشف الأوروبي بذاكرة الراوي التارقي الشفوي. لقد تحوّل النصّ، عبر هذا التداخل، إلى

فضاء حكائي تتجاور فيه وقائع الرحلة مع الأسطورة، ويغدو فيه السرد أداةً لفهم العالم الصحراوي وتمثّل رموزه أكثر من كونه مجرّد نقلٍ لحكايات عجائبيّة متفرّقة. ومن هنا تتجلّى خصوصيّة الشكل القصصي في هذا المؤلَّف؛ إذ يقوم على تعدّد الأصوات، وعلى حضور الذات الكاتبة بوصفها شاهدةً وناقلةً ومؤوِّلةً في الآن نفسه، الأمر الذي منح الحكايات طابعًا توثيقيًّا وسرديًّا مزدوجًا.

كما أبانت الدراسة أنّ القصص الخارقة التارقيّة تنتمي إلى أفق المتخيّل الصحراوي الذي يتأسّس على البطولة، والكرامة، والعجيب، والعلاقة الغامضة بين الإنسان والمجال الصحراوي الممتدّ. فالصحراء في هذه النصوص ليست خلفيّة جامدة للأحداث، بل كيان رمزي فاعل يشارك في تشكيل الوقائع والشخصيّات، ويضفي على السرد بعدًا أسطوريًّا خاصًّا. وقد ساهمت طريقة تدوين "جان رونيه بوتيي" لهذه الحكايات في المحافظة على كثير من خصائص القصّ الشفهي، من قبيل التكرار، والتشويق، والحوار، والوصف التفصيلي لمجالس الرواية وظروف التلقّي، وهو ما أتاح للنصوص أن تحتفظ بنَفَسها الحكائي الأصلي رغم انتقالها إلى الكتابة الفرنسيّة.

وتكشف هذه القصص، في عمقها، عن صورة التارقي كما تشكّلت في المخيال الاستكشافي الأوروبي خلال النصف الأوّل من القرن العشرين؛ صورةٍ تتأرجح بين الإعجاب بصلابة الإنسان الصحراوي والانبهار بعالمه الغرائبي. لذلك فإنّ قراءة هذا المؤلَّف اليوم لا تكتسب أهميّتها من قيمته التوثيقيّة فحسب، بل أيضًا من قدرته على إضاءة التفاعل بين الخطاب الإثنوغرافي والكتابة السرديّة، وبين الثقافة الشفهيّة المحليّة ونظرة الآخر الأوروبي إلى الصحراء الجزائرية الكبرى.

وبذلك يمكن القول إنّ طبيعة الشكل القصصي في *القصص الخارقة التارقيّة* تتأسّس على جدليّة الرحلة والأسطورة، والتوثيق والتخييل، والشفهي والمكتوب، وهي جدليّة منحت النصّ فرادته داخل أدب الصحراء، وجعلته وثيقة سرديّة وثقافيّة مهمّة لفهم المتخيّل التارقي وتمثّلات الصحراء في الكتابات الإثنوغرافيّة والاستكشافيّة الأوروبية.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

- Jeanne René pottier, Légendes Touareg, Nouvelles éditions latines, Paris, 1947.

المراجع:

- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974،.
- عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، ط1، الجزائر 2007.
- Nadia Chellig, Jazia princesse berbére, Traveaux du Centre National de Recherches préhistoriques, anthropologiques et historique, CNRPAH-Chihab, Alger, 1998.

الإحالات

[1] Jeanne René pottier, Légendes Touareg, Nouvelles éditions latines, Paris, 1947.

-لهذا المؤلّف ثلاث طبعات، إحداها في سنة 1943، نشرتها دار فرناند صورلوت Fernand Sorlot، والثانية في سنة 1945، نشرتها دار المنشورات اللاتينيّة الجديدة Nouvelles Editions Latine. والثالثة في سنة 1947، أعادت نشرها هذه الأخيرة، وهي التي اعتمدناها في هذا البحث.

[2] أشكال التعبير في الأدب الشعبي، نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974، ص56.

[3] الأدب الشعبي الجزائري، عبدالحميد بورايو، دار القصبة للنشر، ط1، الجزائر 2007، ص 185-186.

[4] Nadia Chellig, Jazia princesse berbére, Traveaux du Centre National de Recherches préhistoriques, anthropologiques et historique, CNRPAH-Chihab, Alger, 1998.

[5] بقايا هشيم نباتات يابسة.

[6] Jeanne René pottier, OP Cit., pp. 20-32.